أصداء الصمت

محمد عناني

أصداء الصمت

تأليف
محمد عناني

هنداوي

أصداء الصمت

محمد عناني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٨٧٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور محمد عناني.

المحتويات

المقدمة ٧
استهلال ٩
بحور الشعر ١١
في الكهف ١٣
غروب ١٥
إلى شلي ١٧
إلى ابن المقفع ١٩
إلى ابنتي ٢١
حبيس النهر ٢٣
أريج الطِّرْس ٢٥
دبيب الصمت ٢٧
توقف الزمن ٢٩
ضحايا الأسرار ٣١
ألوان-١ ٣٣
ألوان-٢ ٣٥
إلى أميرة ٣٧
إلى جمال الغيطاني ٣٩
نزوة ٤١
القصة ٤٣
عاشق الحسن ٤٧

شادية ٤٩
عمر نجم ٥١

المقدمة

قرأنا في صبانا أن الخوارزمي قال: إن من روى عيون الشعر العربي ولم يخرج إلى الشعر، فلا شيب الله قرنه. وهو بهذا يسبق نظريات النقد الحديثة جميعًا، إذا افترضنا (وهو يفترض) وجود موهبة من لون ما، فالذي يتمثَّل التراث الأدبي في عقله ووجدانه مهما يكن حظه من الموهبة، لا بد أن يقول شيئًا يدخل في عداد الأدب!

ولطالما أحجمت عن قول الشعر، بل وأنكرت حظي من تلك الموهبة، وإن كنت استعنت بالنظم في التأليف المسرحي «الغربان» (١٩٨٧م) و«جاسوس في قصر السلطان» (١٩٩١م) وفي ترجمة الشعر، ولكن الصمت الذي فرضه عليَّ القدر شهورًا طويلة بسبب مرض ابتلاني الله به، دفع إلى وجداني بكلام منظوم لم أعرف له وصفًا، وأخاف أن أسميه شعرًا، ولكن بعض الأصدقاء ممن أثق في حكمهم أشاروا عليَّ بأن أطرح هذا الكلام على الناس، فربما تقبلوه بقبول حسن.

وهذا أيها القارئ هو هذا الكلام؛ إنه وحي الصمت الذي لزمته في محبس طويل، فإن وجدت فيه ما يروق فقد صدق من أشار عليَّ بنشره، وإن لم تجد فترفَّق في حكمك، ولا أظنني بحاجة إلى قول المزيد.

محمد عناني

القاهرة – ١٩٩٧م

استهلال

يا صاحبي
هذي وُرَيْقاتٌ تَجاذَبُها الرياحُ
جمعتُها، صفَفْتُها، لكنها انطوَتْ
وكلُّ ما لقيتُ من عَنَتْ
في نَبْش ماضٍ قد صَمَتْ
يُفضي إلى صُوَر قفارٍ شاحبَة
مَن ذا يُكابد صُحْبة الماضي فيَنعَمْ؟
يأسًا أُنادم ماضيَهْ، وأُعيدُ رسم حياتيَهْ،
والباسماتُ حواليَهْ، مِن ذكرياتٍ فانيَة، أو
مُضحِكاتٍ باكيَة، يُخفين نَفْسًا واهيَة.
والشادياتُ الهائماتُ مع المساءْ،
هَيْهاتَ أن تجني النعيمَ من الهباءْ.
من ذا يُكابِد صحبة الماضي فلا يَندَمْ؟

تلك التي جمعتُها،
أشتاتُ أفراحي وحُزْني،
تحكي عن الألفة والغربة في زمني،
ولا أقول قولَ صاحبِ الزمنِ الجريحِ إنني[1]

---

[1] صلاح عبد الصبور.

أُنكِرتُ في رحابِ وطني.
فإنني سعدتُ بالذي يَعرفُني،
لكنني ما زلتُ في وسني.
أحكي عن الزمن،
والعمرُ يلهثُ لَهْثَ مَن تقطَّعَت به السُّبُلْ،
حتى غدا يشتاق مشرقَ الأمَلْ،
على ضِفاف الرُّوح عندما تذوبُ غِلْظةُ الجَسدْ،
وعندما ينحلُّ طينُنا من الجهدْ،
فتشرق الأضواءُ فوق سندسٍ بلا نهايَة،
ويستريحُ من يظنُّ أنه
كانت له بدايَة.

بحور الشعر

قد يَغضَبُ العَرُوضُ من تَجاسُري،
أو تضحك الأشعارُ من تهوُّري،
إذا تلاطمَت في نظمي البحورْ،
وأثمرَت شُجَيرتي
ما لم يدُر بخاطر الجذوعِ والجُذُورْ؛
فالراجزُ ابنُ عصرِنا لا يأنَفُ الهَزَجْ
إذا به امتزَجْ،
أو استحال «كاملًا» برغم يأسِهِ
وخانَهُ في جَهْره وهمسِهِ،
أو خال أمواجَ «الرَّمَلْ»
إذا تلصَّصَت بين الثَّبَجْ
متاعَ كلِّ راكبٍ متن اللجَجْ
من الزِّحَافِ والعِلَل!
وإن تمازجَت «أهزاجُه» و«وافرُه»،
أفتى بأنَّ شِعْرَه مَشاعرُه،
وصاح محتجًّا بقولٍ يعصمُه:
«الشعر صعبٌ وطويلٌ سُلَّمُه.»
لكل عصرٍ في القَرِيض لُغتُهْ،
وكل شاعرٍ لديه مذهبُهْ،

لكنني واللهِ ما قصدتُ أن أُشاركَ الأمراءَ ألحانَ الفَخارْ،
أو أن يُتوِّجَ هامتي إكليلُ غارْ،
ولستُ أرجو موقعًا بينَ السحابِ أو تسنُّمَ الذُّرا،
أو أطلب المعالي أو أُناجِز العُلا،
فإن صوتيَ الحميمَ واهنٌ خَفيضْ،
هَيْهاتَ أن أَشْدو كمِثْل معبدٍ أو كالغَريضْ،
وكلُّ ما لديَّ من رؤًى بعضُ وَمِيضْ،
سوانحُ القَريضْ،
أمشاجُ أنغامٍ تناهَتْ للأُذُنْ
وقتَ المِحَنْ،
وأنا أُطِلُّ مِن عَلٍ،
فأرى محيطَ الدهرِ يبتلعُ الزَّمَنْ
والماءُ طوفانٌ يفورُ إلى القُنَنْ.
مَن يعصمُ الإنسانَ مِن أمرِ الإلهِ إلا مَن رَحِمْ؟
في الكونِ دَوَّاماتُ ريحٍ صَرْصرٍ وعاتيَة
هل كنتُ نفسًا لاهِيَة؟
هَلِ استمعتُ للنَّذيرِ عندما جاءَ النَّذيرْ؟
ما أَقْبحَ البسمةَ في وجه المَنُونْ!
المدُّ يعلو والسَّفينُ يضيعُ في لُججِ الهَديرْ
«هذا الَّذي كُنتُمْ به تَسْتعجِلُونْ.»
هل آنَ للأمواهِ أن تَغِيضْ؟
أمواجُ نَفْسٍ هاجَ في أرجائها بحرٌ عَريضْ،
شَاقَها شطُّ الأمانْ،
تاقَتْ إلى الوَرْقاءِ والزَّيتونِ والرَّوْضِ الأريضْ،
وللأماسيِّ الحِسانْ،
الغافلاتِ عن الزمانْ،
وبَوارقِ الأحلامِ في عُليا الجِنانْ.

في الكهف

هل تذكرُ إذ آويتُ إلى الصخرةِ
في قلبِ الجبلِ السامِقْ؟
هل تذكرُ كيف سمعْنَا دقَّاتِ الظلِّ المنتظمَة
مثلَ النبضِ الخافِقْ؟
هل تذكرُ كيف انداحَتْ في عَين الماءْ
حلقاتُ النُّورِ الآبِقْ؟
هل تَذكُرُ كيف همست:
ذلك ما كُنَّا نَبغي؛
كَيْما أرتد على آثاري قَصصًا؟
بالأمسِ رجعتُ إلى الصَّخْرة
لكنِّي لم أَجدِ الآيَة،
لم أشهَدْ في البحرِ سفينَة
وجدارًا يُوشِكُ أن يَنْقَض
فالكهفُ خَلا من أصداءِ الظِّل
والنبضُ خَفَتْ
والزمنُ يُقهْقِهْ
هل كانَت تلك الرحلةُ وهمًا
وسرابًا في عَينِ الخضراءْ؟

غروب

خريرُ المياهِ يردِّدُ للشطِّ حَرْفَ انكِسارْ،
لقد طالَت الرحلةُ الصاخبَة،
وكاد يولِّي النهارْ،
وأطرقَتِ الشمسُ فوقَ الغصونِ
تُجاذِبُ أضواءَها الغاربَة،
فهيَّا نُلَمْلِم أطراف ثوبٍ كساهُ الغبارْ،
ونُلقي على الرملِ أمواجَنا اللَّاغِبَة.
خريرُ المياهِ غدا نغمًا كفَحِيحِ الأَفاعِي،
صريرُ الجنادبِ بُحَّ بحَلْق المَراعِي،
ولم تتلفَّتْ سوى بَرْغَشَة
تحطُّ على ظَهْر خُنْفَسةٍ نَاعِسَة.
كأنَّ النسيمَ صدى بسمةٍ يَائسَة،
يبشِّرُ صمت المساءِ بحُلْكةِ ليلٍ طويلْ.

غَريبانِ يا ليلُ نحنُ هُنا
حروفُ انكسارِ المياهِ تُردِّد أنَّا ابتدعْنَا الأمَلْ
وأن الخمودَ هُو النأمةُ المُنذرَة
بليلٍ جديدْ
وصبحٍ يبشِّرُ مثلَ المساءِ بكرِّ العَدَمْ

تُرى كيفَ عادَ الهديرُ فَجَاشْ
كما جاشَ في النارِ نبضُ الشَّرَرْ
يُزَمْجر آنًا وآنًا يئنُّ كأنَّ نداءَ الحياةِ انتصرْ
كأنَّ الضرامَ سجينُ اللسانِ وأنَّ الكلامَ به يَنتشِرْ
حَنانَيْكَ يا ليلُ رفقًا بخِدْنِ الرجاءِ القديمْ
تراه يهُبُّ إذا الريحُ هبَّتْ
تراه يشكِّلُ بعضَ الصُّوَرْ؟
تراه يبثُّ الحياةَ بدُنيا السَّدِيمِ
وهَلْ يَسْتَعيضُ عنِ الصائتاتِ بعُمْقِ الفِكَرْ؟

إلى شلي

أشجارُ السَّرْوِ على جانبِ شارعِنَا
نفضَتْ أوراقًا صفراءْ،
وارتعَدَتْ في البَرْدِ ذَوَائِبُها
بحفيفٍ صامِتْ.
ما بالُ خريفِ اليومِ كَتومًا ذا وجهٍ شاحِبْ؟!
أين الزفراتُ وريحُ الغربِ العاصفةُ الهَوْجاءْ؟!
أينَ شياطينُ الأوراقِ القانية الحمراءْ؟!
رُحْماكِ شِلِي
ما بالُ الفصلِ العاتِي يتسلَّلُ كاللصِّ الأغبَرْ،
ويبثُّ على وجهِ الأرضِ نسيمًا كفحيحِ الأفعى؟!
هل ذاك شتاءٌ في جلدِ خريفٍ يتخفَّى؟!

أشجارُ السَّرْوِ على جانبِ شارعِنا،
ذاتُ الأفنانِ العاريةِ الحسناءْ،
تتطلَّعُ يائسةً لربابٍ أسمَرْ
قَزَعٌ يتلوَّنُ جَونًا أبيضَ أسوَدْ!
يَتلبَّد أو يَنْسحِبُ فيَعِدُ ويتَوَعَّدْ،
والطَّبلُ الأجوفُ يُرعدُ فيه ويُبرِقْ،
يملأُ جنباتِ الليلِ حنينًا للمَولِدْ،

لكنَّ الليلَ إذا أَغْطَش يُلقِيهِ إلى أيدي الرِّيح،
فإذا فاجأَهُ الصُّبْحُ تمزَّقْ،
قد نَضَبَ مَعينُ الجبَّارِ وجافاهُ المَرْقدْ،
وغدَتْ أغصانُ السَّرْوِ الحسناءْ
تبكي كَذبَ المَوعِدْ،
أشجارُ السَّروِ على جانبِ شارعِنَا
جمدَتْ،
باتَت ثابتةً كخطوطٍ في لوحةِ رسَّامٍ بارعْ،
مُتشابكةً مُتعانقةً لكنْ لا تُلْقي ظلًّا بالشارِعْ،
ولسوف تَدُور الشمسُ بمحْجَرِها
كالعينِ البيضاءْ،
تعرف أنَّ أشعَّتَها لن تصلَ إلى الأغصانْ،
وبأنَّ الماءَ سرابٌ تحملُهُ هبَّاتُ الريحْ،
وبأنَّ الأفنانَ ستَقْضِي هذا الفصلَ حزينَة،
وبأنِّي مثلُ السُّحْب ومثلُ الأفنانْ.

إلى ابن المقفع

قد يَفغَرُ التنِّينُ فاهُ ضاحكًا وينتظِرْ،
أغوارُه سحيقَة،
قد يَنظُرُ الفيلُ الرهيبُ طامعًا
إلى البئر العميقَة،
قد يَدْأبُ الحَدَثانِ كالجرذانِ تَقرِضُ الأجلْ؛
لِيَسقُطَ الذي تعلَّقَت يداه بالغُصنَينِ في فمِ التنِّين،
ويُنكِرَ الذي أَلْهاهُ من حَلاوةِ العسَلْ،
وخاتلِ الأمَلْ
عن قَهْر أخلاطِ البدنْ،
أو عن تدبُّرِ الذي يلقاه في جَوْف المِحَنْ.

لكنني إن كنتُ قد نجوتُ من فيلِ الزمَنْ
فإنني غدوتُ ألفُ التنِّينْ
ولم يعُد يُخيفُني كرُّ السِّنينْ
ففي حَلاوَةِ الْعَسَلْ
أصبحتُ أعرفُ الذي تَعْنيهِ سكرَةُ الأمَلْ!

إلى ابنتي

هذا الذي تَرَيْن يا صَغيرتي
نذيرُ صبحٍ يتَبَخْتَرْ،
يَدِبُّ في أقطارِ هذا الكونِ مختالًا ويَهدِرْ،
قد غرَّه أن الحياةَ في عروقِهِ تُزَمْجِرْ،
فظنَّ أنَّه سيَملِكُ السَّماءْ،
وأنَّ قوةَ الضياءْ
ستُنشِئُ الذي لا يعرفُ الفَناءْ.
هذا الذي تَرَينَ يا صَغيرتي يُرغِي ويُزبِدْ،
ما زالَ في الآفاقِ مُنبتًّا فلا أرضًا قَطَعْ،
ولا نورًا أشعّ.
ذراتُ وَدْقٍ واهنَة
قهرَت ضِياهُ وخلَّفَتْه حائرًا ماذا سيَصْنَعْ؟
كيفَ استطاعَتْ تلكُمُ الذرَّاتُ أن تَغْشى السماءْ،
وتُذِيب نارَ أتونيَ الجبَّارِ في لَفْح الهواءْ؟
فكأنَّما عُدْنا إلى سُدمِ العماءْ
والكونُ صارَ إلى فضاءْ.
هذا الَّذِي تَرَين يا صغيرتي خلفَ الغمامْ
لم يدرِ أن الدِّيمةَ الدَّكْناءَ
صانعةُ الحياة،

وحُسْنها المُنساب فوق مَهْمَهِ الخَضْرَاءْ
يُشيع في الأرضِ النماءْ،
كأنَّها حوَّاءْ
قد خُلقت من ماءْ
لكنَّهُ — صَغيرتي — لن يعرفَ البقاءْ
لأنَّهُ لم يَعْرفِ الفَناءْ.

حبيس النهر

لا يرجعُ ماءُ النهرِ إلى النَّهرْ
إلَّا إن صارَ سحابًا وتَسامَى،
وتَباهَى في الشفقِ بألوانِ الزَّهرْ،
والْتمَعَ معَ الفجرِ بذَوْب الفضَّة،
وانتفشَ مع الهبَّاتِ الحارَّةِ في وَقْد الصَّحوَة؛
كي يصعدَ فوق الجبلِ يُريد القمَّة
وعِناقَ المُزْنِ مع النسماتِ المَقْرُورَة،
ثمَّ ارتعشَ فرقَّ وذابَ فمالْ،
وانْحَدَر على السَّفْح إلى خانِقْ
محمومًا كالنبعِ الدافِقْ،
عبراتٍ لا تدري مَن تَبكي
سيلًا يحملُ من أحلامِ القمَّةِ أعشابَ الوادي،
وفُتاتَ الرحلَة،
منطلقًا نحوَ البحر
حتَّى يَتسامَى ويعودَ ليرحَلْ،
كيما يَتباهى في وجه الخَضْراء
كي يَحيا.
لم يعرفْ قلبي وجهَ الخَضْراء؛
إذ ما زالَ حبيسَ النهرِ الأوَّلْ.

أريج الطِّرْس

كَيفَ أُمسِي والليلُ يَسمَعُ هَمْسي خافِقَ الْحُلْمِ بين يَوْمي وأَمْسِي
قارئًا للغُيوبِ قَبْلَ التجلِّي دونَ نَجْوَى ودُونَ نأمَةِ حسِّ
شَاردًا في جَبينِ جارَةِ وادٍ تُصْبحُ الحادثاتُ فيهِ وتُمسِي
وعيونٍ كأنَّها الليلُ سرٌّ مَوْلدي كالحياةِ فيها ورَمْسِي
وأَيَادٍ كأنَّها ورقُ الْورْ دِ نَمَتْها السماءُ من كلِّ قَبْسِ[1]
وعلى بَسْمةِ المُحيَّا دلالٌ عادَ لي بالشَّبابِ من كلِّ جنسِ
كَيفَ أَهْفُو إلى ابنَةِ الْمَاءِ والمَوْ جِ وطَوقُ البَيْداءِ يخنقُ نَفْسي
كيفَ رُمتُ الرجاءَ وَهْو مُحالٌ ورأيتُ الآمالَ في عُمْق يأسي
لا تلُمْ عاشقًا رمتْهُ الليالي في عُباب الأحلامِ تُؤسي وتُنسِي
لا تَلُم مُبحرًا بغيرِ شِراعٍ لا يرى في الظلامِ أَيَّان يُرسي
لم يَعُد في الحياةِ غيرُ أريجٍ لرحيقٍ منَ الحياةِ بطِرْسي

[1] من علي محمود طه.

دبيب الصمت

طالَ صمتُ البابِ حتى قلتُ ماتْ
ودُفنْ،
وتصلَّبَت أُذْنَاي في بَرْد السكونْ،
فأنا أُذُنْ
سمعَت أحاديثَ الذُّبابْ،
ودبيبَ أقدامِ النسيمِ على الترابْ،
وتعجَّبَت من تَمْتماتِ الصمتِ عند البابْ
صوتٌ يطنّ،
ويطولُ صَوتْ
يُذكِي الحرارةَ في دمي،
وتردَّدَت أصواتْ
بحَّتْ بحَلْق السُّلَّمِ،
ثم انثنَتْ
وتماوَجَتْ في البَهْوِ نَحْوي وذَوَتْ،
وتجاذَبَتْ أُذنيَّ أطرافُ الزَّفِيفْ
وخُطَى الحفيفْ
ثم الصَّدَى،
حتى الصَّدَى المسكينُ ماتْ،
قد غُصَّ حَلْقي بالرُّفَاتْ.

يا صاحبي
بيني وبين الناسِ بابْ،
بيني وبين الناسِ ألفُ حِجابْ،
لمَ لا تدقُّ الدقَّة المرتقبَة،
فيهبُّ في قلبي النسيمْ،
وأعودُ للأحياءِ يا بابَ النَّعيمْ؟

توقف الزمن

مِحَنْ مِحَنْ
تقلَّصَت أصابعُ الزَّمَنْ،
وطافَ بالمساءِ طائرٌ وأنّ
في مسمعِ الوُجودِ مِن وَهَنْ،
جناحيَ الجبَّارُ إنْ يَلِنْ
في قَبْضةِ المِحَنْ،
فسوفَ أجتازُ الفضاءَ لِلقُنَنْ،
الطائرُ الهَرِمْ
يَمْضي به أَلَمْ،
منقارُهُ المعقوفُ يَبْتسِمْ،
وبطنُهُ وذيلُهُ تخضَّبَا بدَمْ،
والجُرْحُ سيَّالٌ ولمَّا يلتئمْ،
وعينُه تطلُّ نحو ذروةِ الذُّرَا،
تقلَّصَت أصابعُ الزَّمَنْ.

الليلُ حطَّ والمساءُ فرّ،
وأُبدِلَ النهارُ ظُلْمةً وقُرّ،
توقَّف النسيمُ والجناحُ كَلّ،
ودفءُ نبضِ القلبِ يدفعُ المَلَلْ،
فقمَّةُ الجبلْ

تَلوحُ للهَرِمْ
وقبلَ أن يحطَّ قبَّلَ السحابْ،
وعندما اشرأبَّ رأسُه تجرَّعَ السَّرابْ،
لكنَّه لَمَّا جثَمْ،
وأدركَتْهُ قمَّةُ القِمَمْ،
غَنَّى وغنَّى ثم أنّ
هيهاتَ يا مِحَنْ
توقَّفَ الزمنْ.

ضحايا الأسرار

يا صاحبةَ العينَيْنِ الحالمتَيْنِ تُرى
ماذا تُخفِينَ منَ الأسرارْ؟
الحدقَةُ ليلٌ مجهولُ الأغوارْ،
وبُحَيرةُ نفسٍ صافيةٍ تعرفُها كلُّ الأطيارْ،
وتغرِّدُ فيها عند الغَسَقِ لربِّ الأشعارْ،
وعلى الأهدابِ براعمُ كالنُّوَّارْ
ينسلُّ شذاها في الهَدْأَةِ مثل الأفكارْ،
يُنبِئُ عن سَمَرٍ في ضوءِ البَدْرِ، ولكنْ
يَمْنعُ أن يأتِي السُّمَّارْ
يدعو ويصدُّ يضيءُ ويُحرِقُ كالنَّارْ
يا ويلَ غريبٍ لم يُدرِكْ أنَّ الضَّوْءَ شَرَارْ،
فَغَدا يسألُ إن كانَت بالأَفْنانِ ثمارٌ أَوْ أزهارْ
أغوَتْهُ الأشجارْ
فابتلعَتْهُ الأقدارْ!
يا صاحبةَ العينَينِ الساحرتَينِ تُرى
كم عددُ ضحايا الأسرارْ؟

ألوان-١

قُل كيفَ تكونُ الوردةُ بيضاءْ
وتضوعُ شذًا أحمرَ في كلِّ الأرجاءْ؟
قل كيفَ تكونُ الأوراقُ الخضراءْ
أهدابَ عيونٍ نجلاءْ؟
قُل كيفَ زها العودُ بألوانٍ دكناءْ
والتاجُ على المَفْرقِ فجرٌ وَضَّاءْ؟
رفَّت وردتي البيضاءْ
في قلبي ذاتَ مساءْ،
فسمعتُ خريرَ النيلِ على ظَهْر الصحراءْ،
ورأيتُ ربيعًا يُولَدُ في قَلْب شِتَاءْ،
وشبابًا يرجعُ بي لحياةِ الأحياءْ
يسخرُ من نجوى العقلِ ورُشْد الحكماءْ.
يا وَرْدتي البيضاءْ،
لا ضَيْر عليكِ من الألوانِ الدَّكْناءْ!

ألوان-٢

يا صاحبةَ الوجهِ المُشْرق،
كيفَ رضيتِ بألوانِ الأحزانْ؟
يا صاحبةَ الريشِ الزَّاهِي،
كيفَ تخافينَ الطيرانْ؟
هل تاقَ القَلبُ إلى الغَسَقِ الحالِك
فكسا العودَ سوادَ الليلِ الوسنانْ؟
أَوَلَمْ يعرفْ خُضرةَ وُديانِ العُمْرِ
ويَسمَعْ تَمْتمةَ القُطْعَانْ
أوَلَمْ يسبحْ فِي زُرقةِ ماءِ البحرِ وألوانِ الشُّطْآنْ؟
أمْ خافَ الأصفرَ لونَ الغيرةِ أو لونَ الكُثْبانْ؟
أم خشيَ القاني لونَ العشقِ
فأَجْفلَ من وَقْع الخفقانْ؟
هل ضاقَ بألوانِ الدنيا الزاهيةِ
وآثرَ أَمْنَ النِّسيانْ؟
قلبُكِ يا صاحبةَ الوجهِ المُشرقِ
قبسٌ من وَحْي الرَّحْمن
صاغَتهُ تباشيرُ الصبحِ وأشواقُ الإنسانْ،
وشُعاعٌ يُومِضُ مثل البرقِ فيهدي الحيرانْ،
وضياءٌ عاتبني إذ غابَت عن عيني الألوانْ،

أَلوانُ العُمرِ سرابٌ
ما أكثَرَ ما تخدعُنا الألوانْ!

إلى أميرة

وجهكِ يا أميرَة،
مسافرٌ في نسمةِ المساءْ،
في زَوْرقٍ غريبْ
ينسابُ فوقَ صَفحةِ السماءْ
دونَ شِراعْ،
ولحنُ شوقٍ من بَعيدْ
لحنُ وداعْ
يُطلُّ من سحابةٍ ويَغيبْ،
لكنَّه يَعُودْ
ببسمةٍ كأنَّها فرحٌ حَزينْ
تَمَسُّ وجهَ هذه الأميرَة
فتعقدُ الجَبِين

وجهُكِ يا أميرَة،
قصيدةٌ تقول لا تزمِّي الحاجبَين؛
فبسمةُ العينَين
تُشرِقُ في الشفتَين،
وعندها تهبُّ في سَريرتِي
نسائمُ الصَّباحْ.

وجهُكِ يا أميرَة،
قصيدةٌ مُتْرعَة

لا تَسكُبِي ألحانَها على الثَّرى،
بل انثُري عبيرَها
في غفوةِ الغَسَقْ،
وهدأةِ الليلِ الطويلْ،
الليل كهفٌ يا أميرَة
يَزخَر بالأصداءْ،
وألحانُ دَمي
تَعرِفُها السماءْ،
فَلْتسمعِي الذي ابتدَرْ،
وَلَمْلِمي الذي انتثَرْ
قُبَيل مطلعِ النهارْ؛
فالصُّبحُ يفضحُ الأسرارْ.

إلى جمال الغيطاني

اضرِبْ بعصاكَ الحجرَ ولا تخشَ الوَهَنَا؛
فلَقَدْ خالطتَ ملائكةَ الزمنِ على منضدةِ الجرَّاحِ،
وجاوزتَ الزمنَا،
وَلَقد حُمِّلتَ رسالةَ حبٍّ لعيونِ الخُلْد ففجِّرْها
عينًا عينَا.
النَّبعُ هُنا رغمَ الظُّلمةِ لا يعرفُ وطنَا،
وعلى ظهرِ الصَّحْراءِ المُوحِشِ نورٌ يَخفُقْ
كبَصيصِ الجَمْر الموقدِ شجنَا.
في قَلْبك وَمْضُهْ،
في قلبِكَ عينُ الماءِ ونَبْضُه،
فاضرِبْ بعصاك الحجرَ فقَدْ جاوزْتَ الزَّمنَا.

نزوة

فِي ليلِ عُيونِكِ نَزْوَة،
وَحشٌ ضارٍ يتلوَّى،
يَتواثَبُ يصرخُ فِي الهُوَّة؛
إذ تتلو الوَثْبَةَ كَبْوَة
غَفْوة،
ماذا فِي طَوْق المسكينْ
إلا الغَفْوَة.
الغَفْوةُ فِي ليلِ عُيونِكِ صَحْوَة،
وصباحٌ مقرورُ النَّسَماتْ،
ليتك يا حُلْوَة
كنتِ نسيمًا
أنشقُه فِي الصُّبحِ فيَسْري فِي الجَنَباتْ،
مِثْل النَّشْوَة.
فِي دمِ شفتَيكِ الساخنِ أشواقُ القبلاتِ الحُلْوَة،
وحديثٌ تَعْرفه أصداءُ الصمتِ وتُنطِقُه القَسْوَة،
لحنُ الشفتَينِ الآنَ كَسيرٌ قد فَقَدَ القوَّة،
ماذا فِي طَوْق اليائسِ إلا عبثُ النَّزْوَة.

القصة

كان النهارُ ذابلَ العينَينِ والأنسامُ وَاهِنَة، فأَوْقَد البقَّالُ مصباحًا ليَقْهرَ الظِّلالَ في أعماقِ دُكَّانِه، وكنتُ واقفًا بلا حَراكٍ صامتًا أُتابِعُ الحديثَ بينَ طفلةٍ وأمِّها. لم يَنتَبِهْ إلى الذي تَبْغيه صاحبُ الدُّكَّان؛ إذ كان مشغولًا بعدِّ ما في الدُّرْج من نُقُود، كي يُسْلِم الدُّكانَ للصبيِّ (وَرْديَّة المساءِ قد تمتَدُّ للصباح).

كانت زُهَيرةً تفتَّحَت كأنها ابتسامةُ الربيعِ لِلزَّمان، تعلَّقَتْ بذَيْل أمِّها تشدُّه على عَجَل، وعَينُها على حلاوةِ العَسَل، وعندما استدارَ صاحبُ الدُّكَّان خارجًا تلفَّتَت في دهشةٍ وجمدَت، وراعَها وَجْهي الذي عبثَت به أصابعُ الجرَّاحِ ثمَّ صاحَت: «أمِّي انظري فمَ الرَّجُل!»

كانت كأنَّما قد مسَّها وَجَل، كأنها تخافُ ذلك الغَريب، لكنَّها لم تَرْتعِد، وحرَّكَت سبَّابةً منَ العقيقِ ثمَّ أَرْدفَت: «أُمِّي انظُري! أمِّي انظُري!»

«يا بنتُ عَيْب اسكتي!»

وعِنْدَما تلفَّتَت وجوهُ الواقفينَ حَوْلي، تَسْتَطْلع الوَجْهَ المُريب، غامَت بعينَيَّ الرُّؤَى، وخرجتُ أنشقُ المساء، هَوْنًا على ظَهْر الطَّرِيق، وصياحُ تلك الطفلةِ الجَمِيلَة، يقفو خُطَايَ كأنَّه شبحٌ رَهِيب، لم أستدِرْ لأُنَازله، أنَّى لِمثْلي أن يُنازلَ القَدَر؟ أنَّى لِمثْلي أَنْ يُطاوِلَه!

هَذَا الذي دهشتِ منه يا صَغِيرتي،
وخلتِ أنَّه كبا به اللسانُ فانكفأْ،
ما زالَ قائمًا ... يُرتِّل الآياتِ في الأسحارِ
حتَّى ماجَت الأسحارُ بالألحانْ،
ويُنشِد الأنغامَ في وُجدانِه فيُنشِدُ الزَّمانْ،

وتَلْتقي في عينِهِ عرائسُ الصِّبَا،
وَتَزْدَهي بزينةِ الفَنَاءْ
راقصةً خصورُها النحيلَة
حالمةً شُعورُها المُنْسدِلَة
أريجُها يَنْسَابُ في خَفَرْ؛
ليَنْشُرَ الصحائفَ التي انطَوَتْ،
ويَبْعَثَ الحياةَ كلَّ لحظةٍ بكلِّ قَلْب،
فيُشْرِقَ النهارُ في الدُّجى
وتغربَ الشموسُ في الضُّحى،
ويمتدَّ الزَّمن.

هذا الَّذِي خَشِيتِ منه يا صَغيرتي
وخلتِ أنه شعاعٌ انطفَأْ،
ما زالَ في جَنْبَيه جمرُهُ الدَّفِينْ
يئزُّ باللَّهِيبْ
ويَنْشرُ الضياءَ قلبُهُ الأمينْ
فيَهْتدِي السارُونَ بالدفءِ القريبْ
ويَقْبِسونَ من شعاعِهِ اليَقِينْ،
ما زالَ بركانُ الصِّبا في صَدْرِهِ يَفُورْ،
لكنَّهُ كالنارِ إن ثارَ فبَرْدًا وسَلامَا
في كلِّ لَفْظةٍ تَمُورْ،
وكلِّ لفحةٍ تَدُورْ؛
فالنَّبْعُ من نارٍ ونُورْ
لم يَلْبثِ الحالمُ أن هبَّ فقامَا،
هَذَا الذي رَاعَكِ يا صَغيرتي
وخلتِ أنَّه جناحٌ انكَسَرْ،
ما زال يَزْهو بالقَوَادمِ والخَوَافي،
إنْ شاءَ تحليقًا سَمَت به القَوَافِي،
ورفَّ بين الوردِ والأَقَاحِي؛

لينشقَ العبيرَ هائمًا في كلِّ وَادي،
كُئوسُهُ على الرياضِ مُتْرَعَة،
وعَينُه بالحُسنِ مُولَعَة،
ورُوحُه بالعشقِ مُوجَعَة،
لكنَّه يُكابِدُ المريرَ والأَمَرّ،
ويَعرِفُ المحظورَ إنْ نظرْ؛
فإنَّه رأى الخُلُودَ ذاتَ ليلةٍ حين غَفَا،
وشاقَهُ الأُفْقُ المديدُ إذ بدا ثمَّ اخْتَفَى،
وراعَهُ الزمانُ ساربًا بِلا حُدُودْ؛
إذ حطَّم الفؤادُ ما يَشُدُّه من القُيُودْ،
فأصبح القديمُ كالجديدِ والبَعيدُ كالقَرِيبْ،
ومضًا مُخايفًا كأنَّه سَناؤُهُ الشَّريدْ،
وأصبحَ الزمانُ كلُّه فيضَ خُلُودْ.

هَذا الذي عجبتِ مِنهُ يا صغيرتي
وخلتِ أنَّه غريبْ،
قد عادَ للدنيا كضيفٍ لن يُقيمْ.
من حَولِه الأشياءُ أشباحٌ كأطيافِ السَّدِيمْ،
ورُؤَاه في أعماقِه تنثالُ كالنُّورِ الحَمِيمْ،
في واحةِ الزمنِ القَدِيمْ؛
فهو الذي يَحْيا بماضٍ لا يَرِيمْ،
وكِيانُه يَقْتاتُ بالأملِ العَقيمْ.
هل كانَ للشُّعراءِ يومًا أن يَرَوْا شطَّ النَّعِيمْ؟

عاشق الحسن

ضاعَ الْعَبيرُ إذْ بَدَا … سَناؤهُ عَلى المَدَى
وَانْسابَ كَالْحُلْمِ الغَريـ … ـبِ شَارِدًا وأبـدَا
يَخْتالُ في عَرشٍ يَتِيـ … ـهُ فضَّةً وعَسْجَدَا
ووَجْهُهُ الصَّبُوحُ الشَّمْـ … ـسُ حُسنُها تَفرَّدَا
والسِّحرُ في العينَيْنِ فِي … كَهْفِ الغَرامِ رَقَدَا
لكنَّ نِيرَانَ الشِّفا … هِ جَمْرُهَا مَا خَمَدَا
وَبَيْنَها النَّضِيدُ لُؤْ … لُؤًا هَمَا وَبَرَدا
يُذْكِي جَمالَ الخدِّ يَزْ … هُو مُزْهَرًا مُوَرَّدا
وَيَبْعثُ الْأَلْحانَ فِي … كلِّ النُّفوسِ مُنشِدَا
لِفَرْحةِ القَلْبِ الكَسِيـ … ـرِ في النَّعِيمِ أبدَا
لِفَرْحةِ الْحياةِ وَانْـ … ـتِصَارِهَا بِنَا غدَا
هل قلتُ شمسٌ عامدًا … إنِّي كفرتُ عامِدَا
بلْ أنتِ بَدْرُ اللَّيلِ با … تَ ساهدًا ومُسهِدَا
رَأيتُهُ عَشِقْتُهُ … وذُبتُ فِيهِ كَمَدا
مَن يعشقُ الجمالَ هَوْ … نًا هَلْ لهُ أَن يَسْعَدا
مَن يعشقُ المُحالَ دَوْ … مًا ضَاعَ عِشقُهُ سُدَى
تَبسَّمَتْ لأنَّ طَيْـ … ـريَ الْحَبِيسَ غرَّدا
وراحَ يَرْجُو مَوعِدًا … وكيفَ يَرْجُو موعدا

مِـن ربَّـةِ الأَحْـلامِ تَـزْ هُـو عِـزَّةً وسُـؤْددَا
لـكـنَّـهُ انـتـشَـى وَصَـا رَ بـالـخَـيَـالِ مـارِدَا
يـا ربَّـةَ الأحـلامِ رِفْــ ـقًا قد أتيتُ عابِدَا
فـالـلَّـحْـنُ رنَّ خَـافِـتًـا واندَاحَ في رَجْعِ الصَّدَى
أَنْـغـامُـه مـنَ الـسَّـمَـا مِـزْمَـارُ داوُدٍ شَـدَا
والـقـلـبُ طَـارَ نَـحْـوَهـا والشَّـوقُ فِيـهَا عَرْبَدا
وكـلُّ عـيـنٍ عِـنـدَهـا تـودُّ لَـو أَنْ تَـسـجُـدا
فَـالْآنَ فـيـكِ الـمُـنْـتَـهـى مـن عُـمـرِنـا وَالْـمُـبْـتَـدا
نَـحْـيـا بـآمـالٍ عِـرَا ضٍ ليسَ تعرفُ الرَّدَى
وَنَـخْـدَعُ الـنَّـفـسَ بِـأَ نَّـا سَوْف نَحْيا سَرْمدَا

شادية

صمتَ الشَّادِي،
فترامَتْ أصداءُ الصمتِ ببَطْن الوَادِي،
وترنَّمَ بالصَّمْتِ الغادُونَ إلى المَوْعِدْ،
غابَتْ كلُّ نُجَيْماتِ الفَجْرِ الوَسْنانْ،
أفَلَ الفَرْقَدْ،
وتَبدَّى في الأُفقِ الشرقيِّ خيالٌ
يَرتَعِشُ كأنَّ الموعدَ حانْ،
سبَّحَ لله الكونُ بعُمْقِ المَعْبَدْ،
حتَّى النسماتُ البارِدَةُ انتفضَتْ،
شُلَّتْ من هَوْل الخشيةِ وجلالِ المَوْلِدْ.

صمتَتْ شاديةُ فرجَّعَت الدنيا أصداءَ الصَّمْت،
وتساقَيْنا ألحانَ الصَّمتِ كأنَّا نَقْشانْ،
نَسِيَهُما الفنَّانُ الفرعونيُّ على بعضِ الجُدْرانْ،
والشمسُ تُزِيح الظلَّ وتُلْقي بالجَمْر المُوقَدْ
اللحنُ يدفُّ ببطنِ الصخرِ دفيفَ العابِدْ،
والصمتُ يُذكِّر أبناءَ المعمورةِ باللحنِ الأوحَدْ.
سُبحانَ الله
اليومُ وُلِدْ
واليومُ يَمُوتْ
ويظلُّ الصمتُ حبيسَ الموعدْ.

عمر نجم

مش عارِفِ الليلْ والَّا شَأْشَأَةِ القَمَرْ
خَلْفِ الشجرْ،
والجوّ باردْ زمهريرْ،
نبهْ عيونِي واتْفَزَّعْت — لعلُّه خيرْ.
الدُّوح على الصَّفِّينْ تجمَّدْ وانْبَهَمْ،
اللُّوحَة مَرْسُومَة بأَلَمْ،
وخُيوطها منقوشَة ونَحيلة زيِّ بيتِ العنكبوتْ،
وِسْط السَّما،
وورَاها نُورِ البَدْر شاشَة
قُولْ غُلالَة مُبْهمة،
يا للي نسجتِ الخيطْ ومنِّيت الفُؤادْ بالمُسْتحيلْ،
قلتْ ليه الكونْ جَميلْ؟
يعني علشانِ البَشَرْ
يِتْلهو بسحْرِ القَمَرْ،
يَنْسوا إن النور وراهْ محزونْ عليلْ.
إيه اللي فكَّرْني بعمر؟
كَانْ حِلْم عايزْ يكتملْ
والَّا اكتملْ؟
كان الحقيقة والَّا كان همسةْ خيال

زيِّ الأَمَلْ؟
كان مُوجَة تايهَة في بَحْر هايِجْ قَلْبُه مَايِجْ،
والشُّطوط تِرْمي لشطُوطْ،
كان قوقعَة في إيدْ أخْطبُوطْ،
جُوَّاها لُوليَّه بَنَاها من خيالُهْ،
حمِّلها هَمُّه وكلِّ ما لُهْ،
وتَركْها تتدحْرجْ على أرضِ المُحيطْ.

أنا ليه أخافْ مِ الأخطبوطْ
أنَا مِ البَشَرْ
هيَّ دِراعاتِ الوحوشْ ح تَهزِّني
وانا قَلْبي فيه مليونْ دِراعْ،
وعيني أحلام القمَرْ.

إيه اللي فكَّرني بعمر؟

هنداوي